



لا يستطيع المرء أن يهرب من التشابه التفيلي بين الهدنة الروسية التي فشلت في حلب ونوع آخر من الهدن السورية التي درج النظام الأسدي على ممارستها، توجه الهدنة الروسية إلى مئاتآلاف المحاصرين في شرق حلب، للخروج عبر "مرات إنسانية"، أو البقاء تحت الحصار واستئناف القصف، "الباص الأخضر أو الموت الشنيع".

بحسب مناشير النظام السوري المضورة، ففي وقت "الهدنة الإنسانية" التي أعلنتها موسكو من جانب واحد في حلب، كانت حاملة الطائرات الوحيدة التي تملكها روسيا تقود قافلةً من سبع سفن باتجاه الساحل السوري، لرفع منسوب القوة، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لإنجاح فكرة المرات.

أما الهدن السورية فكانت تتجه إلى سجناء سياسيين مغلوبين، للخروج من السجن عبر التوقيع على شروطٍ تنتقص من كرامتهم الشخصية، دع عنك جانبها السياسي، في الحالين، مطلوب منك أن تترجم ضعفك المادي إلى ضعف معنوي وسياسي وأخلاقي أيضاً، مطلوب منك ليس فقط أن تتخلّى عما تريد تحت ضغط القوة، مطلوب منك أن تنكسر، لكي تستمر مكسوراً، في الحالين، هناك ثابت لا طاوله فكرة التغيير، هو النظام السياسي الذي عليك أن تخضع له، أو تواجه المشقات والخسارات الشخصية اللامحدودة، وصولاً إلى الموت.

الحق أن النظام السياسي الذي لا يقوم على أساس شرعيةٍ مستقرة لا يعنيه كثيراً أن سجين الرأي قد تعجب وينس واقتنع بالانكفاء على ذاته، أو أنه غير قناعته السياسية، وبات على قناعاتٍ أخرى، قد تكون قريبةً من المجال الفكري السياسي

للنظام. هذا يسعد النظام الأمني بلا شك، لكنه جانب ثانوي في منطق هذه الأنظمة، لأنها أنظمة لا تقوم على القناعة، بل على الخضوع.

المهم أن تخضع، الخضوع أهم من الاقتناع. الاقتناع فعلٌ حر غير مستحب، ولا يعود عليه كثيراً، وذلك لأنه قابل للتبدل بتبدل المعطيات، أما الخضوع، فإنه يدخل القناعات والآراء، و يجعلها موحدة أو متشابهة، والأهم أنه يجعلها مضمونة الثبات، وغير عرضة للتبدل الحر، والحال هو كذلك في "المرات الإنسانية" الروسية. ليس الغرض من هذه المرات أن تكون إنسانية، كما سميت.

ليس المقصود منها إنقاذ أرواح مدنيين، احتراماً للحياة، باعتبارها قيمة عليا، المرجو منها أن تكون مرات إخضاع، يدخل عبرها السوريون "الذين هناك" إلى حظيرة السوريين "الذين هنا"، بعد أن أدركوا، بجوعهم وموتهم، أن النظام لا يتغير، أو أن لتغييره ثمناً ليسوا جاهزين لدفعه. إلخ. هكذا هي بالضبط هذه "المرات الآمنة" في عين النظام السوري.

أما كلام المتحدثة باسم مبعوث الأمم المتحدة إلى سوريا ستيفان دي ميستورا "إن المنظمة ضد إجلاء المدنيين ما لم يكن ذلك طوعاً"، فليس سوى هراء. هل من طوعية في ظل حرب؟ وكيف يترك مدنيون بيوتهم وممتلكاتهم وأحياءهم طوعاً؟ قد تحمل هذه المرات في العين الروسية معنى إضافياً، يفرضه البعد العالمي للموضوع السوري، الذي يدفع روسيا إلى الاهتمام بالحد من النقد الدولي، فضلاً عن تفاديها القوة الحالية للإعلام التي جعلت فلاديمير بوتين ينفعل في مؤتمر فلدي في 27 أكتوبر/ تشرين الأول: "أسمع دائماً حلب، حلب، ما هي المشكلة هنا؟"، بعد أن أشاد بالتجربة الإسرائيلية في مكافحة الإرهاب الفلسطيني (!).

لا يتوقف التشابه عند هذا الحد، بين ممر السجناء السياسيين في سوريا إلى "الحرية"، وممر المحاصرين في حلب إلى مناطق النظام، فالتشابه يطاول استجابة المغلوبين أو الضعفاء أيضاً. هنا وهناك، تجد نسبة عالية من الرفض وعدم الاستجابة، مع ما يحمله هذا من قبول الرافضين بنهاية تعيسة، من دون القبول بكسر النفس.

يمكن تلمس عناصر عديدة لتفسير إjection المدليين المحاصرين في حلب عن الخروج عبر المرات الروسية. هناك خوف المدنيين من سطوة الفسائل المسلحة التي رفضت، في مجملها، الخروج، وخوف المدنيين من غدر النظام بهم، فهم يعرفون ما حصل في حمص من قبل، حين أُهين عديدون، واعتقل عديدون من الخارجين على الحواجز.

ومن دلالات الغدر المبيت رفض روسيا تسليم المعابر إلى الأمم المتحدة، وقد ذكرت تقارير صحفية أجنبية، وجود "قضاء"، كما يسميه تقرير مراسل "نيويورك تايمز"، على المرات لفرز المطلوبين للنظام من بين الخارجين. ولكن، إضافة إلى هذه الأسباب السياسية، لا بد أن هناك دوافع إنسانية عميقة لعدم الخروج. هناك من رفض الخروج، حتى لو كان مقتضاً به، لأنه لا يقبل أن ينجو فيما يبقى الآخرون الذين يشاركونه الظروف نفسها، عرضةً للموت.

وهناك أيضاً من يرفضون الخروج نوعاً من الانتصار لأنفسهم ضد جبروت القوة الممحضة، هناك من يرفض الخضوع، مهما كانت العواقب، لا شك أن في النفس البشرية ما يبقى عصياً على الكسر، وما يمكن أن يجعل المرء يقبل الموت لقاء موقف، ويبقى ثمة نسبة من الناس، تقل أو تكثير، أمينة لهذا السر البشري الرائع، المدني الذي رفض الخروج لا يعني أنه يفضل الفسائل المسلحة، إلا بقدر ما يعني أن السجين الذي يرفض قبول شروط النظام لإفراج عنه يفضل حياة السجن.

الكلام عن مرات الإخضاع ونقدتها وإدانة دوافعها الحقيقية يوصفها دوافع تسلط وقهر وليس دوافع إنسانية وتصالحية حقيقة، لا يتضمن أي إغفال للطبيعة التسلطية للفسائل الإسلامية التي تقاتل النظام هناك، ولا يتضمن أي قبول بفكها أو سلوكها الطائفي الشبيه بسلوك النظام وحلفائه، لكنه يتضمن القول إن الحل العنيف القائم على القوة الممحض يعزّز الفسائل الإسلامية، بدلًا من عزلها، وإن فشل تجربة هذه المرات نموذج مصغر عن الفشل العام الذي يحكم مقاربة النظام وحلفائه للخروج من الكارثة السورية.

العربي الجديد

المصادر: